ثنائية الفقد والانتظار في المجموعة القصصية
(بائع الجرائد) لنورة آل سعد

د. نهلة الحرتاني
جامعة المدينة العالمية ماليزيا

الملخص

أصدرت الكاتبة نورة آل سعد مجموعتها القصصية "بائع الجرائد" التي تضم سبع قصص هي: "بائع الجرائد"، "المزرعة الكبيرة"، "زهرة البلوشية"، "رجب الشيال"، " المومياء"، "في البدء كان السقوط"، "الشتاء".

لقد استطاعت الكاتبة عبر عملها القصصي أن تتألق في عالم القصة القصيرة ، وأن ترسمَ بريشة الفنان لوحاتٍ متجاورة للطفولة بين الفقد والانتظار ، وللفروق الطبقيةِ وشظف العيش .

فهي تصدر في عملها عن موهبة متميزة ، وثقافة عميقة ، وذوقٍ أصيل تجاوز سطح الأشياء ومألوفها إلى الجوهر والفكرة العميقة ، مستعيضة عن الواقع والتفصيلات بالملاحظات الدقيقة واللفتة النادرة ، والفكرة المصطفاة . إذ فطنت إلى جوهرِ القصة وإلى روحها ، ونجحتْ في تقديم مجموعة خرجتْ عن المعاييرِ الثابتة والتقليدية ، لتقترح لنا شكلا جديدا يجمع بين الرمزي و الشكل الكرنفالي الساحر ، فأداة الأديب هي لغته التي لاتنفصم عراها عن اللغة العربية التي تعطي الخصوصية والتمييز وتحدد وتقيد الدلالة والعبارة .

ومن المظاهرِ التي تتطلب معاملة خاصة هي لغة القصة القصيرة ، والأسلوب الذكي الساحر ، واستخدام الرمز أداة قوية في خلق جو يجمع بين عبق التراث ونفحة التطور وتنوع نماذج السرد، والتناول المجازي للموضوعات المألوفة .

فجدية الموضوعات الفلسفية والاجتماعية تعطي جمالا أسلوبا متدفقا يساعد في تطوير الحدث الدرامي ، ويحيل الشخوص إلى نماذج إنسانية حية . هذه اللغة لاتستقل بذاتها بل تتناغم مع العناصر الأخرى للقصة مما يجعل فنية بنائها مغامرة ميلاد شكل جديد .

ولعل أبرز مايميز قصص نورة في هذه المجموعة ، أنها مستوحاة من واقع الطفولة المعذبة ،ومحاولة الغوص وراءها للكشف عن المغزى العميق للأحداث وللأفكار ، مما يقودنا إلى التأمل والوصف والتحليل فنخرج من خلال هذا المنهج بثنائية نكتشفها هي(الفقد والانتظار) .

وهذا يدل على براعة وذكاء نادرين في فنية البناء القصصي حين جعلت الكاتبة الروح الرمزية والكرنفالية تبثّ أريجها في هذا المعمار ، إذ تطرح الكاتبة مشاكل العصر الملّحة المتصلة بالواقع بقالب رمزي تشعه دلالة المفردة وارتباطها بالسياق العام مع رفضها للموروثات فتقف منها موقفا انتقاديًّا ، وتعتمد التنوع الأسلوبي والتعدد في الصور الاجتماعية . فالهجائية المرة للواقع والسخرية والاشمئزاز تنم عن موقف كرنفالي ناتج عن القهر والعجز ، فالمغامرة الشكلية في البناء وجدية الموضوعات تظهر مقدرة الكاتبة وطواعية لغتها في احتواء هذا البناء وتماسكه .

- 1 -

يمكننا ملاحظة المغامرة الفنية في بناء المجموعة القصصية من خلال تأمل القصة الأولى في المجموعة وهي: "بائع الجرائد" ، إذ تهتم بالنفاذ إلى الجوهر عبر تكنيك شكلي بارع . تتحدث القصة عن " مالك " الصبي الذي وفد إلى الدوحة للعمل كي يعيل أسرته ، فيندب حظه العاثر الذي ألقى به مكان لايستطيع من خلاله أن يحصّل ما يقتات به ليعود يحمل الثروة التي يحلم بها . فأظهرت الكاتبة هذا القلق عبر عرض تسري فيه الروح الكرنفالية والرمزية، حين رسمت لوحة فنية تظهر هذا القلق . فصورة الكلب المكلوم وما تبثّه من إيحاءات وأجواء تثير السخرية والهجاء للواقع تبيّن سريان تلك الروح ، وخاصة أن الهجاء أسلوب من من أساليب الرفض الذي يظهر الكرنفالية [1] : "وانتبه على صياح ولغط بقربه ورأى كلبا أزبدًا ، يدور بإعياء ويتبعه ثلة من أطفال يرمونه بالحجارة ...... ولما اقترب منه أخذ الكلب يهر ويوقوق بارتياب كاشفا عن لسان دام وأحسّ بصورة ما أن لهذا الكلب في مكان ما كلبة وجراء صغار هم بعيدون الآن ."[2]

لقد تمكنت الكاتبة من تطويع الروح الكرنفالية ، فمبدأ إشاعة الروح الكرنفالية مبدأ يعاد استخدامه ويتسم تطويعه حسب الرؤيةِ الفنية الخاصة [3] ،وكذلك تم ربط الاثر بوضعه الاجتماعي ضمن سياقه الزمني[4]

ونجد الكاتبة تتعمق في وصف الطفولة المشرّدة في ذلك المجتمع " فهؤلاء الأطفال قلوبهم خالية من الزلل والندامة. " [5] ، ونجدها تعتمد على الأسلوب الساخر في رسم هذه اللوحة من خلال ثنائية الفقد والانتظار مبينة الفروق الطبقية . " أشار مالك إلى السيد لأجل إنقاذ الكلب فأجاب كلاب مشردة. " [6]، كما اعتمدت أسلوب الاسترجاع والقطع الزماني : " تذكر قريته هناك تلك العشش السوداء الرطبة ، صناديق الصفيح الصدئة،وتذكر الحجرة التي تأويه هو وثلاثة رجال في منطقة بعيدة عن الدوحة. "[7]

---

(1) جون هالبرن : نظرية الرواية ، ترجمة محي الدين صبحي ، منشورات عويدات ، وزارة الثقافة – دمشق 1981 ص 114

(2) نورة آل سعد : بائع الجرائد ، مطابع الدوحة الحديثة ، قطر ط 1 ، 1989 ص 6 – 7

(3) مخيائيل باختين : شعرية دستويفسكي ، ترجمة جميل التكريتي ط 1 دار توبفال- دار الشئون الثقافية العامة بغداد 1986 ص 235

(4) جان لوي كابانس:النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، ترجمة:د. فهد عكام- دار الفكرن دمشق، 1982،ص80

(5)بائع الجرائد ص 6

(6) نفسه ص 9

(7)نفسه ص 8/4

والقارىء وهو الفاعل الإيجابي[1] يكشف ذكاء الكاتبة في تصوير نهاية تعزز هذه الثنائية "انطلقت ....السيارة،كان الكلب ينتفض بين الفينة والأخرى ، وتحدث غرغرة ثقيلة في صدره أما هو كان ينظر إليه ويدرك أنه سيظل يحتضر طويلا وأنه لن يموت بسبب جروحه الراعفة فحسب ،لا بل بسبب الجوع والصدى."[2]

جاء وصف المكان في هذه القصة معززا للفارق الطبقي " هناك فيلات ذات النوافذ الزجاجية ... وهناك حجرة تشبه جحر الفئران."[3]

وإن المتأمل في وصف الشخصية الرئيسية يلحظ أنها ركّزت على الهيئة العامة التي تظهر سوء وضع ومعاينة هذه الشخصية من الداخل .

أما اللغة المستخدمة فغلب عليها طابع السرد، وكانت أداة طيّعة في يد الكاتبة ساعدها في وشي تلك اللوحات، مظهرة المفارقة بين حياة النعيم والشقاء " رمي الجرائد الباقية في الكيس ، ومثل أطلس شقله على كاهله ، وسار في طريقه كان عمله الآخر ينتظر ، وما فتئ يفكر في الثلج أيضا ."[4]

وأما الحوار فعلى ندرته جاء ذاتيا يشبه الغمغمة والهذيان متناسبًا مع مستوى هذه الشخصية التي تمثل الطبقة السفلى غير المثقفة ، إذا انثال على لسانها ما يفكر به العوام من الناس.

وتمثل قصة " المزرعة الكبيرة " لوحات رمزية كرنفالية متجاورة ، تظهر الفارق الطبقي بين المدير / المالك ، وبين السائق / الخادم ، (بوصفية) شخصية تجتمع فيها تناقصات الداخل والخارج ، الداخل الذي يفتقد المكانة ويغمره الشعور بالنقص فيما يتعلق بطبيعة العمل ، ويحاول الداخل أن يعوّض النقص بما ينساب على لسان بوصفية من حديث يحاول أن يعطي عبره المكانة لنفسه ويعيد الكرامة المسلوبة أمام أسرته التي تمثّل لنا أيضًا لوحة لعجز (بوصفية) عن الإتيان بالولد ، حتى البنت جاءت بعد طول الانتظار .

ويسعى بوصفية إلى قلب موازين الواقع بتغليب الخارج على الداخل ،إلّا أن الواقع يقطع عليه الدور الذي صقلته الكلمات المنتفخة ليفيق ،وخاصة أن هذا الدور الزائف أفقد ابنته طفولتها التي كانت تعيشها سابحة في خيال كلمات

---

(1) جمال شحيد:في البنيوية التكوينية، دراسةفي منهج لوسيان جولدمان– دار الفكر ، دمشق، 1982،ص 28

(2) بائع الجرائد ص 9

(3) نفسه ص 5

(4) نفسه ص 9

والدها عن المدير والموظفين ورغبتهم في رؤيتها ، وهي في الأساس محاولة منهم لتعويض النقص الذي يعاني منه بوصفية .

فالمزرعة الكبيرة التي يتملكها المدير كانت عامل هدم لتلك الطفولة حين أظهرت لها واقع الأب الذي يفتقد المكانة ، وينتظر أن يعيشها مع استمرار الصورة التي رسمها لنفسه أمام طفلته الوحيدة التي تشع مع بريق عينيها ووجهها حين تستمع إلى الكلمات المنمقة المنداحة من لسان والدها ، فجاء المكان ليقطع عليه الحلمية .

لقد استطاعت الكاتبة أن تجعل من المكان بطلا يتجادل من خلاله انتصار الذات وفقدها . فمكان العمل يمثل انتصارًا لداخل بوصفية بالعطاء والخدمة ، إذ يتيح له أن يوطد علاقاته مع المدير والموظفين رغبة في الوصول . والمكان نفسه معول الهدم الذي هشّم الذات فأحالها إلى صورة أخرى ، لأن لطمة الواقع بحرارتها وعنفها ،دمرت التشكيل الأولى للشخصية تدميرًا كاملًا سواء على صعيد شخصية بوصفيه أو على صعيد ابنته . ولما كان مكان العمل منصبًّا على التأثير على الذات ، نجد الكاتبة قد دققت في وصفه من حيث المكونات والبنية النفسية للشخوص التي يحتويها ،إذ كان لها الأثر في تعزيز ثنائية الفقد والانتظار عند الشخصية الرئيسة ، فشخصية بوصفية ثابتة في هيئتها الخارجية وملامحها : الثوب نفسه و البقع نفسها على الأكمام .

بينما هي متناقضة في تركيبها النفسي بين الداخل والخارج ، ففي داخله معاناة من الفقد للوضع الاجتماعي وينتظر التعويض ، ويتعزز الانتظار : "ولكن يحدث بين الفينة والأخرى أن يحزن بلاسابق إنذار،وكان الآخرون يعرفون علّته،كان المطلوب أن يُدعى للجلوس أطلب يا أخوي رقبتي يا أخوي."[(1)]

تلك الكلمات التي شكّلت لوحته الحلمية لما يتمنى أن يكون عليه ، ولكن الواقع بخل عليه باستمرار ذالك الحلم ليعيد بوصفية إلى الواقع :" عاد يا جماعة ولد المدير ما يتحمل الرفس ....أما بوصفية متعوّد عليه."[(2)]، فالواقع حرم بوصفية من سرقة لحظات يسعد بها، مثلما حرمه من الشعور بتمام بنائه الأسري ، مما جعله يلجأ للمماطلة لتغطية الحقيقة وتزييف الواقع : " وصفية ذلك اليوم تتوسل إلي ...... باه خذني معاك الشغل ...... قلت لها بكرة ، كل يوم أقول لها بكرة."[(3)]، فالصورة هنا تفتح النص ولا تربطه بمعنى محدد،([4])بل تجعل من هذا الموقف مشكلة الطبقة الكادحة.

---

(1) بائع الجرائد ص 12

(2) نفسه ص 13

(3) نفسه ص 20

(4) رولان بارت : النقد والحقيقة، ترجمة : إبراهيم الخطيب(مجلة الكرمل) عدد1984،11، ص28

وتأتي اللوحة الطفولية لتظهر الطفولية المهترئة المتمثلة في الأبناء لتجاور لوحات الأبوة البائسة، ف(صفية) بهيئتها الخارجة الثابتة بثوبها الأحمر ذي الفصوص البيضاء ،وحذائها الوحيد الأسود تحمل في داخلها شعور الفخر بأبيها الذي سرعان ما أذابته ما تفوهت به ابنة المدير ، مما أحدث مسحا لذاكرة صفية التي شُحنت منذ زمن بهذا الشعور ، فولّد لديها نوعا من من التفريغ المفاجئ ، " هذا سائقنا كل الناس يشتغلون عند أبوي ،لم تكف صفية عن البحلقة إلّا عندما سمعت ما قالته عن أبيها ،عندئذ أحمر وجهها بسرعة وانطلقت تركض بخفة، وبعد قليل لم تعد تذكر شيئًا ، صفية قد كبرت فجأة بمقدار عشرين عاما ."[1] ، فالصدمة ولّدت نوعًا من القطع الزمني عند الطفلة .

وتصوّر الكاتبة المفارقة الطبقية بين ابنة السائق وابنة المدير من الخارج والداخل : فابنة المدير تشع نضارة وحيوية بشرتها بيضاء كالورق وخدودها فراولة وشعرها مصفف ومرتب ، كانت دمية متحركة، هذه الهيئة الخارجية انطوت على فراغ داخلي ، فالفارق الطبقي وضعها في عزلة عن المجتمع. "[2]

كانت بنت المدير تعاني السأم وقلّة رفاق اللعبة برغم توفّر الألعاب ،وما إن رأت (صفية) حتى تلقفتها وأخذت تجرّها من مكان إلى آخر "[3]، ونتيجة لهذا الفقد الداخلي والعزلة تكوّن لديها معادلًا له، وهو استلاب الآخر وسحقه ، عبَرت عنه الشخصية تعبيرًا خارجيّا: هذي استراحتنا ، هذا حوضنا، هذي أرضنا ..... هذي أشجارنا وهذا سائقنا،وأشارت إلى (بوصفية) الذي كان في تلك اللحظة يحمل على صدره كيسا ضخما من السيارة إلى الداخل والعرق يتصبب من وجهه. "[4]

إن الكاتبة قد نوّعت في الأساليب مما أضفى جمالا على البناء الشكلي للقصة، فاستخدمت أسلوب الاسترجاع والقطع الزماني والمفارقة التصويرية في تصوير الصراع الداخلي عند (صفية) قبل الصدمة وبعدها ،حين أصبحت صامتة وسارحة باستمرار بعد أن كانت متوقدة العينين. وتأتي النهاية الواقعية: ف(صفية)"لا تريد أن يكون عندهم مزرعة ،ولا تريد أن تعيش في مزرعة أحد."[5]

رسمت الكاتبة هذه الصور بتنوع وطابع شمولي وعمق ، وجعلت النهج التشريحي منطلق عملها[6]، وكان الأسلوب الكرنفالي الساخر له دوره في بيان شخصية ابن المدير المدلل حين عبث مع الحيوان، وحاول إيذاءه إلى أبعد الحدود ، مما أظهر فساد التربية نتيجة عوامل مختلفة، فكانت هذه الصورة مظهرا لهجاء الواقع ونقضه. وامتزج في هذه القصة

---

(1) بائع الجرائد ص 16-17

(2) نفسه ص 19

(3) بائع الجرائد ص16

(4)نفسه ص 17

(5) نفسه ص 21

(6)عبد الله الغذامي : الخطيئة والتكفير- النادي الأدبي بجدة ، 1985،ص86 ص16

أسلوب السرد والحوار مع غلبة الأول وجاء بضمير الغائب، وطغت على الحوار اللهجة المحكية بما يناسب طبيعة الشخوص ومستواها .

وتصوّر قصة " زهرة البلوشية "الضياع الطفولي نتيجة الجو الأسري المفكك، فالطفلة غير المسماة في هذه القصة تعاني نتيجة الوضع الأسري المفكك ، فالأب مدمن على الكحول وهو صاحب الفيلا والشركة والأموال الذي يعتقد أن سعادة أسرته تكون بمقدار ما يغدق عليها من النقود. فلا يعطي زوجته وابنته حقهما من الاهتمام والرعاية ،مما ألحق بهما نقصا داخليا أدى إلى مرض نفسي لدى الزوجة والبنت . فالزوجة تتخذ من البنت وسيلة لإجبار الزوج على تحمل المسؤولية ، وتأنّبه باستمرار لعدم القيام بهذا الواجب ، والبنت تهرب من أجواء البيت لتجد الحنان والدفء في (زهرة)، التي تمثل معادلًا موضوعيا للضياع الحقيقي بفقرها وفقدها للأسرة وجور المجتمع عليها لضعفها إلى حد نعتها " بالبلوشية "[(1)] وما تعنيه هذه الصفة من الرخص والتحقير.

هذه الطفولة البائسة تعتلج في داخلها مرارة انتظار التعويض عن المفقود الذي لم يأت ، فهذه المرارة أدّت إلى الضّياع الطفولي عند البنت التي كبرت سنًّا،ولكنها ما تزال تجلس على الرصيف مع ذكريات زهرة الطفلة التي انتظرت الفرج طويلًا ، فامتزج بؤس المكان[(2)]بمرارة فقد الأسرة ، و(زهرة) أرادت أن تكبر قبل الأوان ، فتزوّجت (بوصالح) رغبة في الحماية ،فكان سببا في موتها،فالقصة لوحات لطفولة معذبة سببها خلل البناء الأسري وسوء التركيبة الاجتماعية الطبقية .

رسمت الكاتبة لوحات متجاورة للطفولة الضائعة : البنت وزهرة البيلوشية ، وذلك القادم المنتظر ليكون المنقذ ، وشخصية الأم ، والأب ، والجدة ، والجد ،وامتزجت في هذه اللوحات المعاناة نتيجة الفقد والانتظار .

إن المعاناة النفسية هي موضع تركيز الكاتبة وقد صوّرتها عبر لغة موحية أصابت الهدف، فالبنت الشخصية الرئيسية تفتقد حنان الأب وتنتظره :" وسمعت أبي يسعل بشدة في الحمام. ناديته وقلت له : احملني أنت للسرير ماري ستدعني أسقط ... ماري لا تعرف كيف تحمل الصغار، وقال: تعالى ... وسحبني واحتضنته بقوّة ، وكانت يده مليئة ورخوة ولم تعد عنقي تؤلمني."[(3)]

وتظهر معاناة الفقد عند البنت واضحة رغم أنها تعيش في فيلا فخمة ذات حديقة جميلة ، ولها مربية وثياب جميلة وألعاب كثيرة وغرف مستقلة نظرًا للجوع الأسري. فقد تقاذفتها يد الأب والأم والمربية والجدة والجد . إن البنت ترى في هذه الأمور حائلًا دون سعادتها ، مما جعلها تتمنى أن تتحرر منها.

---

(1) بائع الجرائد ص 27

(2) جاستون باشلر:جماليات المكان : ترجمة غالب هلسا منشورات وزارة الإعلام، بغداد1982ص 40

(3) بائع الجرائد ص 27

قلت لجدي : ياليتني كنت بلوشية ، وقالت أمّي إذا كنت تحبينها أكثر منّا فروحي وعيشي معهم، قلت لأبي إذن خلوا زهرة تعيش معنا لنأخذها عندنا وتصبح أختي ،وقلت: زهرة وأنا ، زهرة أختي."[1]

إن الأب قد أعفى نفسه من الإشراف على طفلته وأسرته وانصرف إلى جمع المال واللهو والمجون "وقال أبي : نامي الصغار لايسهرون ،وقلت له : رائحة فمك كريهة ...... أعرف شربت الدواء أيضا وقال أبي: شربت الدواء نامي وإلا."[2]

وأوضحت الكاتبة تفسّخ الروابط بين الأب والأم وتمزق الطفلة بينهما ، فهذه البنت تمثل حلقة منفصلة تقف في وجه الأحداث بمفردها لم يظهر نقيض هذه الصورة إلا في المرآة فقط، عندما توحدت صورة البنت مع صورة الأم فيها .إن البنت تنتظر هذا التوحد الذي لم يحدث في الواقع ، بل شاهدته في صورته غير الواقعية . وفي الوقت نفسه تتمنى لو كان هذا المشهد واقعًا يعوض مرارة الواقع ، فشخصية الأم صلبة وحادة خلقت منها الظروف المحيطة واتساع العلاقات الاجتماعية غموضا وإبهاما[3] تلجأ إلى التقويم بالضرب والشدة بدل أن تغدق الحنان على البنت، وهذه السمة في شخصيتها مرجعها إلى إهمال الزوج لها ولبيته ، فهي تفرغ معانتها الداخلية على البنت بتعنيفها وضربها ، وكذلك جعلها تلقى بمسؤولية البنت على المربية،لتهرب من أجواء البيت القاتلة بعد محاولات مضنية مع زوجها للإصلاح، فتستعيض عن ذلك بالسهرات والحفلات:" قال أبي : هذه خامس مربية عندك ...... البنت متعلقة بها ..... لوكنت فقط ...... لكن الخروج والنادي والحفلات ...... قال أبي ستخنقيني ستقتليني ،وقالت أمي : لا أحد يهتم بي في هذا البيت."[4]

أما شخصية زهرة فتمثل وجهًا للمفارقة التصويرية مع شخصية البنت بداخلها وخارجها ، وقد لعب وصف المكان دورًا في تعزيز هذه المفارقة : وفتحت باب الصالون ونزلت الدرج إلى الرصيف ،ثم اجتزت الشارع كانت كومة الرمل الناعم لاتزال في جهة الشرق ، أما بيت زهرة فهناك في *الغرب ، وركضت نحو البيوت الصغيرة .*
كانت جدارنها مشققة وحائلة اللون ، لأنها صبغت على عجل وفوقها رسم كل طفل خطا أو خطين ، ونظرت إلى الشارع الذي اجتزته لتلوي وكانت هناك فلل مصفوفة وكثيرة وكبيرة وعالية وشكلها مضحك وكانت فيهم فيلا أبي وأمي . ودخلت الحجرة وكانت زهرة تكنس المكان بمكنسة القش ثم ترش الماء على التراب ..... كانت الحصيرة بادرة

---

(1) بائع الجرائد ص 28

(2) بائع الجرائد ص 24

(3) أرنست فيشر: ضرورة الفن: ترجمة: أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة،1871ص108

(4) بائع الجرائد ص28

ورقيقة تحت أقدامي وزوائدها النافرة كانت مؤذية." [1]

ظهرت شخصية زهرة من زاويتين هما: نظرة الآخرين لها من الطبقة العليا الطاغية المحتقرة ، وكذلك من جانب البنت التي احترمت زهرة وأحبتها ، فأعطى التناقض صورة للفروق الطبقية السحيقة البشعة التي تدمر المجتمع والقيم : "صرخت أمي البلوش؟ البلوش ؟ وقال أبي زهرة وأهلها فقراء ما عندهم شيء تريدين أن تكوني فقيرة ، تريدين أن يأخذ أحد منك غرفتك وألعابك ، وقال أبي: زهرة وسخة وسوف تعديك بالأمراض ، وقالت أمي وجدتي:زهرة في الشارع حافية وضحكت جدتي وقالت:" البلوش يسرقون الأطفال احذري أن تذهبي عندهم ...... وقالت جدتي : كل ناس لهم ناس ، وكل ثوب له لبّاس . وقالت جدتي : من علمك هذا الغناء ؟ قلت :زهرة علمتني . وقال جدي: لايليق... هذا لايليق لاتغني هكذا أبدا." [2]

تمثل شخصية (زهرة) صورة للطبقة السفلي من الناس التي تعاني الإسفاف ،وتريد أن تكبر لتقوى على حمل هذه المعاناة ،إن شأن زهرة في معاناتها شأن سليمان خادم الحديقة الذي يلازم العرق يده باستمرار هذه الشخصيات من الطبقة الكادحة تحصل على قوتها بتعب وجهد، حتى إن زهرة تدفع حياتها ثمنا لكي تتخلص من هذا الواقع: "وقال أبي (بوصالح) سيتزوج زهرة كبر ودبر، وقالت زهرة أنا سأموت...سأموت."[3]

فالطبقة العليا تحاول أن تمتص دماء هذه الطبقة الكادحة ،ثم ترمي بهم دون مبالاة :"وقال أبي سيطردونهم سينظفون المنطقة منهم ،ويبنون فلل تسد عين الشمس ،وقالت جدتي : الفقراء نعطيهم صدقة دفعًا للبلاء .

إن حلم زهرة تمثّل في شاب وسيم من الطبقة العليا رغبت أن يخلصها مما تعاني منه وانتظرته وانتظرته، ولكن كان انتظارها للموت . لقد كان هذا حلمًا عصيًا ،فهذا الشاب جاء بعد فوات الأوان :" قلت لها

انتظرنا وانتظرنا وما أتوا ... وجلست في مكاننا المعتاد أنا وزهرة، لكن زهرة ليست معي الآن زهرة ذهبت وأنا فقط هنا ، وهي وحدها هناك وانتظرت ورأيتهم يأتون من جميع الجهاتِ ويتقدمون نحوي بثبات تمامًا كما تقول الأغنية التي علمتني إياها زهرة." [4]

أظهرت القصة أن الأمل آت ولو بعد طول انتظار ، فالبنت طالما انتظرت وانتظرت وعانت من فقدان الحنان قد وجدته ، ولكن كانت وحيدة دون رفيقتها التي اختفت ،و هي ما تزال باقية بما بثته فيها كلماتها من عزيمة وقوة تتحمل عبرها ضربات الزمن .

---

(1)بائع الجرائد ص 33

(2) بائع الجرائد ص 28

(3) نفسه ص 30

(4) بائع الجرائد ص 31

إن الكاتبة قد زاوجت بين الحوار والسرد بشكل مناسب ، وكان السرد بضمير المتكلم أدعى للتأثير وإحداث الانسجام والمتابعة ، واللغة هي المظهر الأكثر لفتا" للنظر في هذه القصة ، فهي ملائمة لتركيب القصة القصيرة إنها تتحرك بلطف من الخارج إلى الداخل في الشخوص والأحداث حين تجري الكاتبة مقابلة بين الفقر والانتظار. ولم تعد اللغة مرآة لتصوير الواقع بل هي وحدة مستقلة تتحرك عبر أكثر الموضوعات عقما من مثل الحب والوجود والمال والوقت والاكتئاب . وهذه القصة الرمزية تصور صراع الانسان مع عوامل الهدم ورغبته في بناء واقع جديد . لذا استخدمت الكاتبة لغة ذات أصداء صوفية وقص شعبي ونثر شعبي ،ظهر واضحا كطقس رافق شعائر تجلي زهرة لتختفي من الواقع كنموذج للتضحية قدمته الطبقة الكادحة، لتصل إلى ما تريد وتحلم . وفي الوقت نفسه أظهرت ملاصقة البنت للواقع في شكلٍ من غياب الوعي: كان في عيني ظلام وماكنت نائمة وقالت جدتي : وراحت حمدة بنت السماك العرس وشافها ولد الشيخ ... وقال أبي حرام أن نسأل ،وقالت جدتي : لقي ولد الشيخ نعال حمدة ، ودخل على أمه وقال لها : الآن اخطبي لي صاحبة النعال،ونادى المنادي في البلاد ،وقال أبي حرام أن نسأل ،وقالت أمي : إذا لم تضربها الآن أمامي فسوف ... وقالت جدتي : وأخذت ولد الشيخ حمدة إلى قصره وقال أبي : تريدون فلوس : تعالى خذي . وقالت أمي : تحبينها أكثر منا ؟ روحي وعيشي معهم." [1] ، هذه اللغة بكثافتها ورمزيتها رسمت(الفقد والانتظار) عند البنت وعند زهرة وعند الأم التي تمنت الموت لطول الانتظار. وتستمر هذه اللغة الرمزية الصوفية المصاحبة للطقس في حال وصول المعاناة أوجها لتصل بنا إلى الخلاص بانفصال زهرة عن الواقع واتصال البنت بواقع جديد عبر زمن متحرك بين الماضي والحاضر والمستقبل بشكل جدلي مثير .

وتجلت براعة الكاتبة في إعطاء لوحة تصارعت فيها النقائض : الفقد والانتظار ، الطفولة والكبر، الواقع والحلم ، الغني والفقير ، في أجواء طقسية امتزجت فيها الأزمنة .

وفي قصة " رجب الشيال " تصور الكاتبة الطفولة البائسة المشردة ، (رجب) الطفل اليتيم الذي يبلغ العاشرة من عمره يحاول أن يعيل أمه وأن يحقق أحلامه في شراء عربة ذات مقبضين نحاسيين.

لقد أدى سحق المجتمع له أن يلجأ إلى طرق مبتذلة تجعل تحقيق هذا الحلم ممكنا، منها:التسول وادعاء المرض هذا بدوره أدى إلى أن يصبح رجب أعرجا . إن مسعود وبوجابر رمزان لهذا الظلم،مثلما كان محمود وإبراهيم وورجب رموزا لضحايا هذا الجبروت الاجتماعي ،حين أخرجهم من نطاق الحياة بصورة مؤثرة مع عدم ضمان حقوق أسرهم بعد رحيلهم عن الحياة ، فالمجتمع ضيع هؤلاء الناس وسحقهم .

---

(1) بائع الجرائد ص 39

تصور شخصية رجب المعاناة نتيجة فقدان القوة ،وانتظارها حال حصوله على العربة ذات المقبضين النحاسيين ، لذلك نلحظ الكاتبة تصور ضعف رجب أمام مسعود وبوجابر التاجرين الكبيرين.

وفي الوقت نفسه يحلم بامتلاك القوة في يوم من الأيام " عندما أكبر سأضربك ياكرش. " (1)،إن القوة هي حلم رجب ولكن الضعف هو الواقع الحالي له : "ارتفعت يد ضخمة طارت في الهواء وحطت على ساطر رجب مباشرة ، داخ رجب واستند إلى الجدار – حاول التجلد ولكن دموعا صغيرة طفرت من عينه وتبددت ."(2)

لقد انعكس ضعف رجب وانسحاقه الطبقي على هيئته الخارجية :" فذباب الصيف يحوم حول شعره المفلفل اللّزج وثوبه المفتوح الصدر بدون أزرار وفانلته الداخلية المحلولة الخيوط ..... ولكن الذباب كان يحوم بصورة خاصة حول لفافات ساقه الملطخة بالإفرازات." (3) ، تهاوى رجب نتيجة ظلم المجتمع له، فهو لم يكن أعرجا إلاّ أن احتياله بالعرج ليستدرّ عطف الناس ... قد جعله أعرجا، فالرباط الذي أتلف ساقه ،"كان الألم يبدأ ولا يتوقف حتى ينام ،وهو يحلم بعربة الجر ويعدّ في سرّه ما وفره لشرائها ريالا ريالا." (4)

إن المجتمع قد رفض رجبا أكثر من السابق لاختياره طريقا خاطئا في تحصيل الرزق أجبرته الظروف القاسية عليه :" واقتربت منه المرأة وابنتها ومرتا به ،لكنه قفز وراءهما :صدقة والتفتت إليه البنت في ثقة : أنت ما تستحي امش ... في سنك يروحون المدارس."(5) كان لإهمال أسرته وفقرها وظلم المجتمع لأمثال رجب دور لما وصل إليه رجب: "تقرفص رجب على كرتونة ممزقة، وشرع يخرج أعقاب السجائر المدعوسة بالأقدام ويضعها أمامه، ويفصل الكبير ويخبأه في جيبه الداخلي، أما الأعقاب فقد وضعها أمامه ،وأخذ يشعل واحدا بعد الآخر بأصابع وشّحها النيكوتين بلونه الأصفر." (6) ،ولعل محاولة بوجابر التاجر الكبير استغلال ضعف رجب ولصغره تعزيز لصورة الظلم الاجتماعي:" لكن قلت لنفسي هذا ولد أعرج ويتيم.... وفيه أجر.... وهو صغير أربيه على يدي وأفهمه الصنعة .... دنيا مالها أمان والذي تعرفه أحسن مما لاتعرفه." (7)

كذلك شخصية مسعود التاجر الكبير في ظلمها ،إن مثل هذه السلوك يصوّر سوء العلاقات بين الناس الناتج عن سيطرة المادة والقوة فالضعيف لامكان له ، وهذا الضعف تمثله الطبقة الكادحة وهم الشيالون ومنهم رجب وإبراهيم محمود ، هذه الطبقة تفتقد القوة وتنتظرها.

---

(1) بائع الجرائد ص 40

(2) نفسه ص 44

(3) بائع الجرائد ص 40

(4) نفسه ص 41

(5) نفسه ص 45

(6) بائع الجرائد ص 46

(7) نفسه ص 48

"كان شيالو السوق جالسين حول كشك قمر ، مفنجلين أعينهم ممتقعي الوجوه ، وكان أحدهم شاحبا كالسحابة وله كرش... وقد جلس الشيالون على قطع الطابوق المكسّر وعلى الإطارات القديمة
وكانت ستراتهم كالحة تحت أشعة الشمس التي تغشى الأبصار ،وكانوا يضعون أيديهم المبططة السميكة على ذقونهم كأنهم ينتظرون." [1]

إن المعاناة الداخلية عند هذه الطبقة سببت فتورا وتهاونا في المعاملات فيما بينهم : "وقال رجب بإصرار لا تدفعني كلمني مثل الناس إحنا شيالين مثل بعض ..... ولا يصح نضحّك الناس علينا .... ونهض الرجل ذو اليد الطويلة نحو رجب لكن الرجال أعادوه إلى مكانه." [2]

وتصور القصة حرص رجب على الجماعة وحقوقهم رغم صغر سنه : "لازم نحمي بعضنا البعض ... ما ينطرد منا أحد ،والمريض يستريح حتى يشفى ...... والكل يعمل ويستريح . ولا أحد ينقصم ظهره أو تخلع كتفه ..... نعم تذكرون إبراهيم ؟ ذلك اليوم شال 200 صندوق على ظهره ... وذهب ونام ... وما قام من نومته أبدا . ونظر رجب إلى الشيالين الذين استغرقوا في التفكير." [3]

استطاعت الكاتبة أن تبين لنا جور الحياة على هذه الطبقة الكادحة وذهاب حقوقهم وحياتهم هدرًا، فإبراهيم أولا ومحمود ثانيا ورجب ثالثا . إن رجب قد وضع تحت تأثير عميق من المعاناة جعلته يقبل أن ينزل الحفرة العميقة الخطرة الموحلة بالماء الداكنة، ليتقاضى ريالات يكمل بها ثمن العربة ، فدفع بذلك حياته كاملة :" وخلع رجب ثوبه وفانلته ، وبدا وهو عار كأنه عصا الراعي ، وكوّم ملابسه ولفها بعضها البعض ،ووضع عليها حجرا كبيرا لئلا تتدحرج وتطير ،ثم غطس فجأة كالحجر الثقيل وبعد ثوان وجيزة
ظهرت على السطح فقاقيع وزبد .... وبعد دقائق كان المكان خاليا تماما فقط الحفرة الداكنة،
وقد صارت ساكنة وبجانبها كومة ثياب ملفوفة جيدا ،فبداخلها ربع ثمن عربة بمقبضين من نحاس ."[4]
لقد بدا واضحا استغلال الطبقة العليا لمثل هذا الصغير ، ظهر هذا على صعيد التاجرين ، وعلى مستوى الرجلين الثريين أصحاب السيارة اللامعة ،إذ أغريا الصغير بالنقود التي يحلم بها فنزل الحفرة ، ولم يخرج منها أبدا.

---

(1) بائع الجرائد ص 42
(2) بائع الجرائد ص 49
(3) بائع الجرائد ص 49
(4) نفسه 50- 51

فالقصة تمثل لوحات متقابلة لطفولة معذبة ولمجتمع طاغ لا يرحم ولا يحرص على حماية هذه الطفولة البريئة وأحلامها . فالحلم حلم والواقع هو الواقع الذي أسدل ستار الحلم :" سأصير شيالا غصبا عنك ... سأصير قويا معظما ...... سأجمع فلوسا." [1]

لقد تجادل وتجاور عبر هذه القصة الحلم المفقود والواقع المعاش والأمل المنتظر الذي احتضن هذا الحلم ورعاه ، وعبر لغة القصة تم التعبير عن هذه الجدلية ،وقد امتزج فيها الحوار والسرد وتواءمت مع الشخصيات ومستواها العمري والعلمي ،ورسمت لنا لوحة مؤثرة هدفت إلى توجيه نداء لحماية الطفولة وحمايتها من براثن الطبقية والإسفاف الاجتماعي .

-2-

وتصور قصة " المومياء " فقدان الذات والانهماك بأعباء الحياة ومسؤولياتها . فناظرة المدرسة أفنت حياتها جالسة على المكتب تمارس الأعباء الوظيفية ،ثم تأتي بيتها وتنام بجوار زوجها كجثة هامدة ، وبالمثل زوجها كقطعة جامدة من أثاث البيت ،وحين تقدم بها السّن تتأمل بيتها كأنها تراه لأول مرة بلوحاته ودهانه وفرشه ، هذا البيت كان لفترة طويلة مشرّبا بالسكون والجمود . لقد حاولت الناظرة أن تخلص للمدرسة ولطلابها وأن تغيّر سلوكيات التلاميذ وتغرس فيهم المثل،ولكن كان ذلك على حساب نفسها ،حتى زوجها هو الآخر كان منغمسا في علمه حتى أدركهما الزمن ، فبدأت تستعيد الماضي بذكرياته الروتينية في العمل ،وبرؤية جديدة للحاضر .

لقد لعبت اللغة دورًا بارزًا في البناء الشكلي لهذه القصة بكثافتها ورمزيتها، وتمكنت من الغوص إلى عمق الشخصية وخارجها مظهرة الروتين القاتل في حياة الشخصية الرئيسية . "فالأزمنة ممتزجة وكل شيء يحدث الآن ويستمر إلى الأبد ... وليس هناك ماض ولا حاضر ولا مستقبل."[2] كما أظهرت اللغة المكان جامدا صلبا :" الذبابة تطن بقربها تنوس بصفاقه متناهية . وكان ذلك الصوت الحي الوحيد في الحجرة ،فأحست بشيء يشبه الارتياح ونامت كالميتة .... كانت ليلة مشبعة بالرطوبة، والأصوات تنتقل
عبر الجو ضبابية ومخنوقة كأنها آتية من ماض سحيق." [3] فشخصية الناظرة قد فقدت الحرية والتمتع بلذة الحياة ، فضاقت عليها الدنيا بما رحبت ، واللغة أبرزت المعاناة الداخلية للشخصية ، إذ إن الفراغ تسلل إلى عمقها فبدت ميتة وهي على قيد الحياة ، فالزمان والمكان لا روح فيهما . إن السيدة مهملة كشيء زائد في حياة زوجها:" أخفت

---

(1) بائع الجرائد ص 52

(2) بائع الجرائد ص 51

(3) نفسه ص 50

وجهها بكفيها وطفقت تشهق وقد احتبس بكائها .... وشعرت بالحمى تفور في جسدها المسجى على الفراش المثلوج ، واضطربت مرارا وتمرغت فيه بتوهج وجموح." [1]

إن الزوج كان قطعه جامدة من أثاث البيت ، فلا ريب أن تعاني الزوجة من فقدان الدفء الأسري ، ومن ثم نجد الموت استوطن روحها،فتتنهد آهه صغيرة ولكنها عميقة وجارحة .

هذا وإن تفسّخ العلاقة بين الزوجين قد أشاع الضيق والتوتر في أجواء البيت:" عيناها مغمضتان لكنها انتبهت بكل حواسها لارتطام مكبوت بالأرض وسمعت تدفق الماء على أرضية دورة المياه .....كان هناك ضغط على زر النور... خرج ... تسحب حشر نفسه بين الألحفة." [2]

لقد وضعت الكاتبة يدها على المفردات التي أبرزت الوجع داخل شخصية الناظرة في لحظات كان يقتضي أن تشع بالحرارة بين الزوجين افتقدتهاوانتظرتها طويلا، ففزع الزوجة من القطّ لم يؤثر على الزوج:

" حدّق مباشرة في عينيها بلا مبالاة كان لسانه قصيرًا وشواربه قبيحة ووسخة وأخذ يشم كل شيء في طريقه ، الوسادة اللحاف ، الثياب ، وأخذ يتنفس في قدميها ويلعقها بلسانه الخشن ... انتفضت واصطدم ذقنها بوجه زوجها وهزته آ ، آ ، آ." [3] إن محاولة الزوجة جذب انتباه زوجها، ليحس بوجودها إلى جواره قد فشل إلى أقصى درجة من الفتور والموت ،مما أثلج العلاقة بينهما على مستوى التعامل الشخصي : "جلسا إلى المائدة .كان المذياع بقربهما – كوارث .... زلازل ... اختطاف... اغتيال ،وخيل إليها أن صوت المذيع يرتجف ، أنه سوف ينفجر ضاحكا،وأرعبها ذلك الترقب فأدارت القرص ... إنه يضحك ملء شدقيه كلا .... لاشك أنه قد لملم أوراقه وغادر، حينما أغلقت المذياع بأصبعها بحركة صغيرة واحدة وكل تلك الكوارث توقفت الآن جميعا بل لم يعد لها وجود."[4]

لقد جاء وصف المكان عبر امتزاج الزمن وتعانق الماضي والحاضر في ذهن الناظرة :" لاحظت فجأة أن السجادة البنفسجية تشع حرارة هادئة في جو الحجرة ،بينما كانت الأزهار في الأصص الضيقة ذابلة تتوهج في اصفرار آسر ،بهرتها جاذبية الأشياء وكأنما قدر لها وحدها أن ترى كل ذلك لأول مرة."[5]

ويطل عليها الحاضر عبر هذه اللحظة الحلمية :"كانت الحجرة مزدحمة وقطع الأثاث تقع على الأرض تحدق فيها بتربص وانتظار،ولم تستطع أن تتذكر متى اشترت كل تلك الكائنات الصامتة الموجودة هناك منذ سنين منذ الخليقة ،

---

(1) بائع الجرائد ص 53

(2) بائع الجرائد ص 54

(3) بائع الجرائد ص 55

(4) بائع الجرائد ص 58

(5) نفسه ص 58

وفكرت " أين أنا " حين إذن أدركت بصورة قاطعة وبدون مبرر أنها وحيدة تماما ،وتمنت أن تختفي على الفور دون أن تترك خلفها أثرًا." [1] .

فشخصية الناظرة تفتقد نفسها الضائعة بين دقات الزمن "على مقعد خشبي مسوس واطئ جلست تحدق بين رجليها دون أن تستطيع ثني ركبتيها ولم يكن للمقعد ظهر ، فكانت تنحني للأمام وتنظر بين قدميها طوال الوقت ، والمقعد في العراء ينزل الليل ينهض الصباح ، تشتعل الشمس ، يغتسل الثلج ، وتمر الفصول الأربعة ،وعندما استيقظت شعرت أن ظهرها يؤلمها ،وخطر لها أنها قد تصبح ذات حدبة." [2]

إن عمق المعاناة بالفقد وطول الانتظار قد أوجد عند الشخصية رغبة في الانصهار لإعادة التشكيل ومحاولة مواجهة الواقع بقوة التجدد وسحق الروتين ،فهذه اللحظة لحظة صوفية .

استخدمت الكاتبة اللغة باقتدار لترمز لفعل الزمن في إحداث التغيير:"وجدت نفسها أمام المقعد ، الماء يفور يتميز غيظا ورائحته النفاذة تتخلل ثيابها ...،ومدت يدها احترقت اللهب الأصفر انكمشت الشعيرات تكرمش الجلد ابيض اللحم تصاعد الدخان من الشواء الآدمي أورق الألم ، لم يكن مابها عذابا كان قلقا مستفيضا يدوس على دمامل روحها يفقؤهها الواحدة تلو الأخرى بلذاذة وتفنن." [3] . هذه الشخصية تنتظر لحظة ولادتها من جديد لتندفع بقوة محاولة تغيير سلبيات واقعها في البيت والمدرسة حين شاهدت الطفولة البائسة في مظهر أحد تلاميذها : "وكانت الأوساخ تحت أظافره تغريها بإدامة النظر إليها،لكن أعصابها المستوفزة أحبطت لحظات متعتها وقالت يجب أن تقلم أظفارك." [4]وتحاول جهدها أن توجه بتربوية هذا الطفل:" تحايلت لتبتسم نجحت في ذلك ، فقالت ألا تخجل من نفسك ؟ وضرب المائدة بكفه قال : بلى إني أخجل من نفسي ... إنني
كذلك ، وصفقتها أنفاسه برائحة البيض والخس والسمن المحروق ... وكان فمه محشوا ،وقال لاهثا ... وقاطعته بصرامة ولا كلمة ، كانت تمسك بزمام الأمور." [5] .

إن الرغبة الجامحة في تعويض المفقود جعل الشخصية تصب قوتها الجديدة في إعمار الواقع المدرسي الذي يربي الطفل وأن تتجاوز كل العقبات . إن شحنة القوة الجديدة أيضا أهملت الذات وانصبت على بناء الآخر :" في منتصف الحصة يعمل عقلها. كليك. كليك. التروس العظيمة تبلع التروس القميئة تترك- تترك، تنفعل وتقف على رؤوس أصابعها هناك من يسوط ظهرها، الشمس تسكب أشعتها عمودية في البؤرة من قبلها ،فتلتهب روحها كالمرجل

---

(1) بائع الجرائد ص 59

(2) بائع الجرائد ص 59- 60

(3) بائع الجرائد ص 59

(4) نفسه ص 58

(5) بائع الجرائد ص 60

فجأة تبطئ العجلات، ثم تتوقف تماما وتنظر حولها بذهول وجوه التلميذات الشمعية.. المفتشة ..حقيبتها ..ورماد الطباشير المتخلف .. وبدا الموقف كله فج ومقزز ،كالملدوغة انتفضت ماذا تفعل هنا وجاءها الرد بسرعة لاشيء [1].

وتأتي لحظة عودة الناظرة إلى ذاتها في جدلية بين الفقد والانتظار:" ليس هناك أدنى صلة بين ما تريده وما يحدث ،ماذا تريد ؟ لشدة ما يخجلها أن تكتشف في أعماقها فُتاتا من الزهو بشيء ما أي شيء ، وتمنت أن تصرخ : نحن بياذق شطرنج تافهة يلهو بها الأرباب والأيدلوجيات ،سيال من المشاعر المؤذية كشعرة دبقة عالقة في أقصى الحلقوم." [2]

ونجد الحوار الداخلي بدرجة مركزة ،حوار الذات الممزقة بين المفقود والمنتظر :"احترقت ذاتها بالأسئلة السوداء : الزمن الماضي- الأعوام القادمة المستقبلة ترى هل ... هل ... سيأتي." [3]

أما الحوار الدخلي فلم يظهر إلاّ في الموضعين بغية التوجيه وانتظار الثمرة المفقودة حين حاورت التلميذ وحين حاورت السائق [4] . لقد جاورت الكاتبة الزمن الحاضر إلى المستقبل ، فالشخصية الرئيسية قد تسمرت على كرسي ،وهي قد فقدت الذات إلى الأبد منتظرة التعويض: "يدها الحدباء على ركبتها أخفتها تحت المكتب الجديد مكتب الناظرة :"للمقاعد الجديدة رائحة عفنة سوف يئز الكرسي تحتها تتصاعد أنفاسه ببطء ثم ستمتلكه الأعوام تقطر من صنبور الزمن بلا ضجة ، وهذا الكرسي يتملقها جيدا لقد تمت الخديعة ... والبوابة الكبيرة ذات المزاليج والتثاؤب والشجريات غير المشذبة المشرئبة في كل اتجاه الروائح القوية ، البلاط القذر العيون المنتفخة الجرس . رن- رن." [5]

لقد جاءت اللغة لتعبر عن اهتراء الذات للشخصية الرئيسية وفقدانها إلى الأبد والمعاناةالتي تكابدها في انتظار التعويض الذي قتل هذه الذات ودمرها فالروتين مستمر إلى الأبد .

إن الكاتبة باعتمادها السرد بطريق الغائب الذي استحوذ على جلّ القصة ،قد أعطى للغة ميدانًا واسعًا لتقاذف كرات الألفاظ وإحكام تصويبها على الهدف المنشود ، فأخرجت لنا عملا بشكل جديد لعبت اللغة دورًا بارزًا في معماره الفني الجميل.

---

(1) بائع الجرائد ص 61

(2) بائع الجرائد ص 63

(3) بائع الجرائد ص 63

(4) نفسه ص 66

(5) بائع الجرائد ص 67

وتصور الكاتبة في قصة " في البدء كان السقوط " المرأة المتعطشة للولد ، فهي تفتقد الولد وتنتظره بألم وعذاب شديدين،تتمنى معهما الموت ولكن الموت لايأتي ولا الولد يأتي ، ويقودها الحلم لما تريده ، ويعيدها الواقع لما هو مشاهد ومعاش .

إن البناء الشكلي لهذه القصة اعتمد على الحلم والحكاية الشعبية وتشكل منهما عبر لغة مكثفة ورمزية،فالبساط الأملس الذي افترشته شخصية الأم ،ما هو إلا بساط الريح الذي يتخطى حدود الزمان والمكان ،إلا أنها حرصت على معايشة اللحظة الراهنة : "ماما .... سأختبئ ، وعليك أن تجديني ، ودون أن ينتظر ردا تبخر في الهواء،اختارت بقعة بلا سبب ، فرشت عليها البساط الأملس ، ركزت جهاته الأربعة أوتادًا من حجارة لعله لا يطير."[1]

وتصور القصة طغيان الحلم على الواقع رغم محاولة الأم التسليم، فمعاناتها الداخلية تطفو على السطح: "وأخيرًا انتبهت لوجود المحيط الشاسع ، وبدا لها أنها محض نشاز في وسط لوحة فطرية للغروب تناغم اللون والضوء والظلال، معجزة تامة بديعة ماء- ماء- ولا شيء سواه تراه بلا حدود، وتوجست خيفة فتذكرته : عليك أن تجديني – ونادت أين أنت ؟ ولم يحر الكون جوابًا ."[2]إن الحلم في هذه القصة أداة للكشف عن أعماق الشخصية وباطنها:"خيل إليها أنه يراقبها من مكان ما، يراها تتمزق إربا لكنه يمعن في عبثه سيقول بنزق كنت ألعب فقط." [3]

لقد عمدت الكاتبة إلى رسم لوحات قاتمة لأعماق هذه الشخصية التي تعاني الفقد والانتظار:

كانت الشمس تموت وفي الداخل العتمة سميكة، وبعد قليل لفظ جسدها الحرارة، وأصبح باردا كالفحمة المنطفية ، فكانت في ظلمات ثلاث ."[4] إن هذه الشخصية ترى الوجود بنظرة سوداوية : كتل السواد تهيم على الوجود ، تسد مسام الأرض وتتمطى على على خط الأفق، والقمر وحده أبيض ولكنه شاحب وبعيد، هاهي سفينة الحياة في عرض المحيط ترتل أنينا واهيا ، وتنشد خلاصها وسط موج كالجبال." [5]

وأظهرت الأحداث من خلال لغة مؤثرة عمق المعاناة وشرحها للروح :"عندما أنهكها السير في الممرات الخانقة السوداء ،تمددت على النتوءات الشرسة ،فأحست نسغا كهربيا يعبر بوابة الروح ،ويتدفق قطرة قطرة في أعصابها،فينداح الألم في دوائر مسترخية ، وخطر لها أنها لابد وأن تكون سعيدة وقهقهة شتاء في داخلها : ما السعادة." [6]

(1)) بائع الجرائد ص67

(2) بائع الجرائد ص68

(3) بائع الجرائد ص69

(4) نفسه ص69

(5) نفسه ص70

(6) نفسه ص 71

استطاعت الكاتبة أن تسبر عمق الشخصية ودوافعها : عندما أصبح الألم خارجا عن حدود الطاقة ، فتكون الأمنية تراجع الزمن إلى الوراء .

"أحست رجفة هائلة عندما فكرت بأنها ربما كانت صغيرة ذات يوم وتساءلت متى حدث ذلك ؟ كان الأمر بسيطا – تستطيع أن تقفز بخفة إلى أن تسلم جسدها لقوة الجذب ، وتجاوبت مع النشوة الطاغية وتحشرجت في شبق ...... أريد أن أموت عند هذا الحد انتفضت ..... عض روحها الألم

وتمنت لو تعود أدراجها إلى ذلك البساط الناعم الأملس ، وتشهد من بعيد دوما الغروب في سكينة وأمن تناغم الكون والضوء والظلال ولا شيء بعد ذلك ."[1] لقد كان الحلم بناء شكليا مؤثرا للأمنيات المفقودة داخل الشخصية (الأم) : "كان الحلم ينثال دائما على نفس المنوال ، وكانت تحلم ، وترى نفسها في الحلم، أما هو فكانت تحس بجوده فحسب .... عليك أن تجديني." [2]

ونلمس اختلال هذه الشخصية عبر امتزاج الواقع بالحلم وطغيان الحلم : متى حدث ذلك ؟ هل كانت تحلم ؟ أمامها ظهرت فتحة وظلمة هل تدخل ؟ فدخلت." [3]

وفي لوحة أخرى رسمت الكاتبة الأمل المنتظر : انظري ياماما، وكان يكور شفتيه بإعياء ... وقد رقد لسانه بلا حراك على فكه الأسفل أرجوانيا شاحبا ، وأخذ يمص الهواء بقوة ونظرت إليه عيناها على لسانه ،وخيل إليها أنها ترى تيار الهواء ينجذب إلى فمه المبقور كالهاوية." [4]

تجاورت لوحة الألم والأمل ، الفقد والانتظار مما أوجد معاناة داخل الشخصية تمنت الموت عندها، ولم تجده : "كان يجب أن يكون هناك .....لكنها لا تزال هنا بلا زمن ... ولا ذكريات وكل ما في الأمر أن شيئا سحريا مسح بكفه على جبهتها، وبقدر ما حدث ذلك ، ولم يحدث أبدا كانت الانتباهة الأولى والأخيرة معا ،وتولاها ذعر خانق ،إذ تصل بنفسها إلى أنه لا معنى للموت ، وأنه غير موجود تقريبا." [5]

إن الشخصية تمزقت أمام تلك المعاناة:" انتصبت من بعيد بينما يمتصها الضباب الموغل، يبتلعها بدون مقاومة وتغوص كالحجر الثقيل في حلكة قائمة كتلك التي تسبق بزوغ القمر."[6]

لقد امتزج السرد والحوار في لغة القصة القصيرة التي أمامنا، فكان السرد بضمير الغائب يرسم الشخصية عبر الواقع ،

---

(1) بائع الجرائد ص71

(2) نفسه ص 73

(3) بائع الجرائد ص 74

(4) بائع الجرائد ص 74

(5) نفسه ص 75

(6) نفسه ص76

أما الحوار بنوعيه الداخلي والخارجي فكان يرسم لوحات حلمية مؤثرة للأم والطفل الحاضر والغائب .

إن البناء الفني الجميل يشارك الحلم في تشكيله عبر لوحات متقابلة لما هو معاش، وما هو مرغوب ومتمنى ، أظهرت من خلاله تداخل الأزمنة واختلاف الأمكنة .

وتأتي قصة " الشتاء " معززة لثنائية(الفقد الانتظار) ، وصورة لاهتراء الذات سواء على صعيد الزوجة أو الزوج ، فالجو الأسري يكتنفه البرود والخواء نتيجة تعطش الزوجين إلى الولد وهروبهما من أجواء البيت الذي يشعرهم بأن شيئا ما ناقص ، فالزوج مع مشكلات العمل ، والزوجة مع الطبيب النفسي ، إلا أن محاولة الهروب عند كل منهما قد باءت بالفشل ،وأظهرت فقدان الأمل مع صعوبة انتظار شيء لن يأتي.

إن الأجواء الأسرية خاوية بين الزوجين فضلا عن ثلوجة المكان على غير حقيقته الواقعية :"كان الوحش الضبابي يقبع على صدورنا ..... يحيط بنا ، والجو البارد يخترق جلودنا ويسمرنا في أماكننا كتماثيل ميتة ..... وكان جو الغرفة حارا ...... كأنه مرجل يغلي ...... لكنها كانت ترى الثلج يعلو كل شيء." [1]

إن المكان في هذه القصة يصور المعاناة الداخلية لهذه الشخصية بما تصوره اللوحة من روتين ورتابة ،

وقد حاولت الكاتبة أن تجعل من الزمن موافقًا ومجاورًا للوحة المكان ، فالشتاء تقاعس وخمول وفراغ ، والصيف مستهلك ورتيب : في الشتاء تصبح التفاهة والوحدة والفراغ طفيليات دقيقة تنفذ إلى قلوبنا ، تتنفس الرطوبة والصقيع وتتجرع اللامبالاة والسلبية حتى الثمالة .. نداوم في العمل... في البيت ...

في المقهى في الغرف المشبوهة الضيقة ، ونهذي بإجازات الصيف وبالمدن البعيدة وأشياء مستهلكة ورتيبة." [2] فهنا ظهر تجاوز الزمان والمكان في اضفاء جو رتيب على حياة الشخصيات التي تنتظر القادم الجديد الذي لم يأت. إن الكاتبة قد غاصت إلى عمق الزوجة التي تعاني المرارة إلى درجة أوصلتها إلى استخدام العلاج النفسي رغبة في قتل الفراغ الذي أوجد فيها الحيرة :"أنا حائرة ... ماذا تريدين؟ سألني الطبيب النفساني ،ولم أدر بماذا أجيبه ،وسألني : هل عندك أطفال ؟ قلت لا ..... لا أستطيع أن أحمل في أحشائي سوى العدم والفراغ." [3]

إن اللغة بثقلها قد جسدت الألم الداخلي واقعا ملموسا، قالت بلوعة : "كم أود لو أنجبت أطفالا

---

(1) بائع الجرائد ص77

(2) نفسه ص78

(3) نفسه ص79

حديقة بيتنا قاحلة ... مثلي ومثلك . انظر ... السماء تمطر لو كان لدينا أطفال لاندفعوا إلى الشوارع يتحدّون المطر ،ويعبّقون الأجواء بالبراءة والصدق والآمال والمستقبل." [1] فالكاتبة استطاعت باقتدار أن تخرج لنا المعاناة الداخلية إلى لوحة تمثيلية مشاهدة للزوجين :"ما فائدة أن نريد ... ونحن عاجزون عن تحقيق ما نريد .... الحلم عندنا لايكون واقعا .... يصبح كابوسًا فاجرًا ... والأمل عندما نعشقه

ثم نضطر أن نشنقه بأصابعنا تظل جثته تلاحقنا إلى الأبد." [2] إن الأجواء الأسرية كما صورتها الكاتبة نستشفها من خلال عزاء الكلمات والتمني بالحلم :"قال وفي عينيه ارتسمت غيمة حمراء، فإنه الشتاء أنا رأيتهم هؤلاء الأطفال ... كانت الأعاصير الهوجاء تمحقهم وتلطمهم ،ماذا أفعل إذا كانت حياتنا شتاءات متواصلة ولا ربيع قادم أبدًا." [3]

إن الأمل المقتول قد شرخ العلاقة بين الزوجين رغم محاولة الحفاظ عليها :" أريد أن أتوصل معك لكن الموانع غامقة ورمادية ، مدت إليه يدها ... لسعتها برودته وكآبته فأعادتها بسرعة ... فأحسّ أكثر بالبرد ... نهض وانسل مسرعًا إلى الخارج." [4]

لقد وضعت الكاتبة نهاية مؤثرة ورمزية لهذه القصة بينت شرخ العلاقة الزوجية ، وانتقال شخصية الزوجة عبر معاناتها إلى اللاواقع إلى الحلم إلى الجنون :" صرخت فيه برجاء ... متى تعود؟ رفع إليها رأسه بكسل وتثاءب ثم واصل طريقه إلى الخارج دون أن يجيب، صرخت فيه برجاء أكثر " عد مبكرًا "فتمتم بكلمات لامبالية وغرق في الشارع المسوّر." [5]

إن الوحدة والفراغ والواقع والحلم امتزجوا في أعماق شخصية الزوجة :" عادت وحيدة ... دخلت الغرفة.... أسرعت إلى رف غير واضح في الجدار .... أخرجت منه دمية ... ووضعتها في حقيبتها وأخذت تهزها وهي تردد أغنية حزينة كأنين مكتوب ، كربيع لم يأت بعد." [6]

إن هذه النهاية عبر لغة الكاتبة الموحية المشعة قد صورت أن فقدان الأمل يهدر حياة الإنسان ويحولها إلى عدم ، ويكون الموت رحمة مرجوة .

إن معالجة الكاتبة لهذه القصة كان عبر لغة امتزج فيها الحوار والسرد، وكان الحوار متلائما مع معاناة الشخصيات وتفجير دواخلها وتعريتها أمام بعضها البعض ، وكان السرد مصورا الجو العام بين الواقع والحلم ، فهنا يصادفنا تشكيل فني جميل لبناء قصصي طمح إلى تصوير معضلة اجتماعية ، وهي فقدان الولد .

---

(1) بائع الجرائد ص79

(2) بائع الجرائد ص80

(3) نفسه ص 81

(4) بائع الجرائد ص 81

(5) نفسه ص 82

(6) نفسه ص 83

- 3 -

إن الكاتبة في لوحاتها المختلفة قد صورت الواقع ، لكن هذا التصوير لم يكن تسجيليا ، وإنما غاص إلى عمق الأشياء ، وقام على هجاء الواقع هجاء مرا .

ولقد وظفت الموروثات في صورة عامل هدم للشخصية الرئيسية منبع الأمل ،وتميزت اللغة بكثافتها ، ورمزيتها واختراقها الهدف الذي وظفت له بنجاح عبر استخدامات متعددة للمفردة سواء على صعيد السرد أو الحوار ، مما يجعلنا نصف العمل بأنه نجح في التعبير عن شريحة اجتماعية معينة عمدت الكاتبة إلى إظهار معاناتها ، وإيجاد الحلول والعلاج لتلك المعاناة .

إن الطفولة البائسة في مجتمع لا يرحم ولا يمتلك وسائل الحماية لتلك الطفولة ، يقودها إلى التشظي والانسحاق .

إن فنية البناء الشكلي الذي ضم بين جدرانه تلك المرحلة الحرجة من حياة الإنسان كان على قدر من المرونة، ليستوعب تجريب الكاتبة لأساليب وطرق أخرجته عن النمطية والتقليد نحو التفرد والخصوصية ،فمغامرة البناء الشكلي لهذه المجموعة خصت الطفولة متدرجة زمنيا من الخلق إلى حلم التكوين .

****

المصادر والمراجع:

1- أرنست فيشر: ضرورة الفن: ترجمة: أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة،1871م.

2- جاستون باشلر:جماليات المكان : ترجمة غالب هلسا ، منشورات وزارة الإعلام، بغداد 1982م.

3- جان لوي كابانس:النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، ترجمة:د. فهد عكام ،دار الفكر، دمشق، 1982م.

4- جمال شحيد:في البنيوية التكوينية، دراسةفي منهج لوسيان جولدمان،دار الفكر ، دمشق، 1982م.

5- جون هالبرن : نظرية الرواية ، ترجمة محي الدين صبحي ، منشورات عويدات ، وزارة الثقافة – دمشق 1981 م.

6- رولان بارت : النقد والحقيقة، ترجمة : إبراهيم الخطيب(مجلة الكرمل) عدد11،1984م.

7- عبد الله الغذامي : الخطيئة والتكفير- النادي الأدبي بجدة ، 1985م.

8- مخيائيل باختين : شعرية دستويفسكي ، ترجمة جميل التكريتي ط 1 دار توبفال- دار الشئون الثقافية العامة بغداد 1986م.

9- نورة آل سعد : بائع الجرائد ، مطابع الدوحة الحديثة ، قطر ،ط 1 ، 1989م.